أثر التهجير القسري لموريسكيي الأندلس إلى المغرب الأوسط (الجزائر) (١٤٩٢-١٦٠٩م)

أ.م.د. سمير عبد الرسول العبيدي(*)

المقدمة:

نجح العرب بفتح الأندلس، وخلال المدَّة (٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م) رسَّخوا – بخاصة - في سنوات الاستقرار السياسي مبدأ التعايش، الذي أصبح نواةً لظهور حضارةٍ عربية إسلامية، امتدت لتشمل جميع نواحي العلوم والفنون الآداب، كما انتشر تأثيرها الحضاري الكبير ليشمل مناطق أخرى من القارة الأوربية، لكن شَهِد العام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م نهاية الحكم العربي الإسلامي، بسقوط حكم بني الأحمر (٦٣٥-٨٩٧هـ/١٢٣٨-١٤٩٢م) في مملكة غرناطة Emirate of Granada، الواقعة في جنوبي إسبانيا، عَقِب صراعٍ مرير، إذ كانت الرمز الوحيد للحكم المتبقِّي لهم في شبه جزيرة أيبيريا The Iberian Peninsula.

لكن هزيمة بني الأحمر لم تعنِ نهاية الوجود العربي الإسلامي إلَّا بشكلهِ الرسمي فقط، إذ برزت مشكلة جديدة أشد قسوةً، على الرغم من أنَّها رافقت جميع مراحل تقهقر الوجود العربي الإسلامي منذ سقوط حاضرة الأندلس طليطلة Toledo في ١٠٨٥/٥/٢٥م، أي ما يزيد عن أربعة قرون، عانى خلالها الأندلسيون مسلمون ويهود، من المُعاملة اللاإنسانية للحكَّام والسلطات الإسبانية، بهدف إرغامهم على تغيير عقيدتهم، ومسخ شخصيتهم من أجل دمجهم في المجتمع الإسباني، وقطع جميع الصلات مع عقيدتهم وتراثهم.

رافق هذا الصراع المرير حركة نزوحٍ مستمرة للأندلسيين باتجاه مناطق الحكم الإسلامي في الأعمّ الأغلب، ومناطق أخرى في المغرب الغربي، لكن مع الانحسار الكبير والمُستمر، في مقابل تقدم الممالك الإسبانية، بحيث اقتصر الوجود العربي الإسلامي على مملكةِ غرناطة في الجنوب، أخذت حركة النزوح تتجه بشكلٍ أكبر وأكثر نحو المغرب

(*) الجامعة المستنصرية / مركز الستنصرية للدراسات العربية والدولية.

العربي، بخاصة عَقِب سقوط مملكة غرناطة، الذي لم يكن سوى بداية لمرحلةٍ جديدة من مراحل الاضطهاد الرسمي للأندلسيين، حيث اتَّبعت السلطات بتحريضٍ ودعمٍ مباشر من الكنيسة الكاثوليكية Catholic Church، سياسةً ممنهجة للقضاء على جميع مظاهر الوجود الإسلامي في إسبانيا، ما شكَّل بدايةً لمرحلةٍ أشد وطأةً للهجرة الأندلسية إلى المغرب العربي، حيث استمرت مراحلها بالتتابع حتَّى عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، تاريخ الطَّرد الرسمي للمسلمين من إسبانيا.

لقد حمل الأندلسيون من مسلمين ويهود معهم إلى مناطق هجرتهم نمط حياتهم مع جميع مظاهر حضارتهم، فكانت لهم بصماتهم الواضحة على المناطق التي استقروا فيها، ومنها المغرب الأوسط (الجزائر)، ذلك ما سعى هذا البحث إلى تتبع سِمَاته المميزة.

تكون البحث من مقدمةٍ وأربعة مباحث، سعى المبحث الأول لدراسة سِمَات التعايش والوجود الحضاري في الأندلس، إذ شَهِدت نمط من التعايش الحضاري السلمي بين الفاتحين والسكَّان الأصليين، عززته السياسة المُتسامحة التي اتَّبعها الحكَّام المسلمون في أغلب مراحل حكمهم، بخاصة سنوات الاستقرار السياسي، ما شكَّل أرضيةً خصبة للتطور الحضاري، الذي اتَّسع إلى خارج نطاق شبه الجزيرة، وما زالت معالمه الرائعة حاضرةً إلى الوقت الحاضر.

في حين تطرق المبحث الثاني إلى حركة الهجرة والنزوح الأندلسي عِبرَ تاريخها الطويل، الذي امتد لعدَّة قرون، شَهِد خلالها متغيراتٍ جوهرية، لكنها بالإجمال اتخذت طابعها الرئيسي عَقِب سقوط غرناطة، إذ اشتدت حركة النزوح.

وتطرق المبحث الثالث إلى أهمِّ سِمَات الهجرة الأندلسية إلى الجزائر (المغرب الأوسط)، وديموغرافيتها ومراحلها، مع التنويه بظروفها وأعداد المهاجرين ومناطق استقرارهم، بخاصة في المدن الساحلية الجزائرية.

والمبحث الرابع والأخير تناول أهم التأثيرات الحضارية للمهاجرين الأندلسيين على مدن المغرب الأوسط، عِبرَ الجانب السياسي – العسكري، ثمَّ الجانب الاقتصادي الاجتماعي، الذي كان من العُمق بحيث شَمِل جميع مظاهر المجتمع، كما يمكن تتبع سِمَاته المتميزة إلى الآن، من خلال الفنون والآداب والمظاهر العِمرانية وغيرها.

المبحث الأول:
الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.. التعايش السلمي والحضارة

لم يكن الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا عام ٩٢هـ/٧١١م، مجرد احتلال عسكري، بل كان حدثاً حضارياً امتزجت فيه حضاراتٍ سابقة كالرومانية The culture of ancient Rome والقوطية Gothic architecture مع حضارةٍ جديدة لاحقة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج الحضاري المتنوع حضارةً أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوربي وأثَّرت فيه[1]، فالفتح العربي الإسلامي كان ختاماً لدور وبداية لدورٍ عربي إسلامي لاحق تغلغل في الحياة الإسبانية، ليترك فيها تأثيراتٍ عميقة لا زالت ملامحها الحضارية باديةً للعيان حتَّى اليوم[2].

ففي هذهِ البقعة من الأرض التي دعاها الفاتحون (الأندلس) al-Ândalus قامت أول

دولة عربية إسلامية في القارة الأوربية، وهي دولة استمرت قائمة لنحوِ ثمانية قرون، حيث نجح الأندلسيون أنْ يجعلوا من وطنهم واحداً من أكثر بلاد الإسلام ازدهاراً، ليُقيموا صرح حضارةٍ امتزجت فيها عناصر أوربية وعربية "أفريقية وآسيوية"، كانت لها شخصيتها المميزة عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية، لتصبح جسراً عبرت خلاله الثقافة العربية إلى أوربا[٣].

لقد أدرك الفاتحون منذ البداية أنَّ القوة العسكرية وحدها قد تحقق نتائج سريعة، لكنها مؤقتة سرعان ما تتلاشى عندما يستعيد الخصم قواه، فلجؤوا من أجل حماية فتوحاتهم إلى أدواتٍ ثقافية تحترم الإنسان، وتحقق مصالحه، وتصون كرامته وحقوقه الإنسانية والثقافية والدينيَّة المختلفة، ما رسَّخ لدى سكَّان الأندلس كافَّة شعورهم بالمُساواة ونيل الحقوق، وإلى إطلاق الطَّاقات الفكرية والإبداعية، ممَّا كان له أثرٌ بالغ الأهمية في تشييد الحضارة الأندلسية، التي أسهم فيها جميع المكونات المُجتمعية، الأمر الذي لقي تشجيع حكَّام الأندلس على مرّ تاريخها.

لذا فما شرَّعه الفاتحون في الأندلس جعل الوجود العربي له جذوره الموغلة في العمق، إذ استند على التواصل العقلي والروحي مع مختلف مكونات المجتمع، بل مع الجيران الأوربيين، حيث ارتكز على نشر القيم والأفكار والمبادئ السامية والمعرفة والإبداع التي اتَّخذت من النشاط العلمي والأدبي والفكري والعِمراني سبيلاً للتعبير عنها.

قامت الحضارة العربية الإسلامية على طلب العلم والمعرفة، فلم يضيعوا فرصة الإفادة من العلوم التي كانت سائدةً لدى الأسبان والأوربيين، ذلك أمر تلقائي من قومٍ اتخذوا من مقولةِ «اطلب العلم ولو في الصين» شعاراً لهم، فلم يجدوا صعوبةً بإغناء معرفتهم بما وقفوا عليه من علومٍ ومعارف لدى سكَّان إسبانيا وجيرانهم الأوربيين، فأعطوا وأخذوا، وأثَّروا وتأثَّروا مستفيدين من فرص الاتصال المباشر التي سنحت لهم[٤]، حتَّى غدت الأندلس إبَّان الحكم العربي الإسلامي حلقة اتصالٍ رئيسة، وساحةً لتلاقي الحضارات وتفاعل الثقافات[٥].

كانت المدن ومعظم الأرض المُنتجة في الجنوب بيدِ المسلمين، قرطبة ثمَّ أشبيلية Seville فيما بعد وغيرها، تنتج تقريباً كلَّ أصناف الفاكهة، وجميع أنواع الكروم، والحدائق حول بلنسيا València التي وصفها أحد الكتَّاب: "بأنَّها الفردوس"، كذلك امتدح الكتَّاب المسيحيون أرضهم على أنَّها الفردوس؛ وحيث تطلَّبت الطبيعة العون والمساعدة ابتدع الأندلسيون نظام شامل للري، يشبه إلى حدٍّ كبير نظام الري المتطور الموجود في بلاد الشام ومصر، ما جعل هذهِ المناطق إحدى أفضل المناطق الزراعية في العالم المعروف آنذاك، في حين كانت بؤرة هذهِ الثروة العاصمة قرطبة، على الرغم من أنَّ المراكز الحضرية، من سرقسطة Zaragoza في الشمال، مروراً بطليطلة في الوسط، إلى المدن في الشرق والجنوب، كانت غاصَّةً بالصروح العِمرانية.

وفي الغالب الأعم، بغضِّ النظر عن التفجر بين الحين والآخر للخصومة المُتبادلة، فقد عَمِل الجميع على العيش جنباً إلى جنب، وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإسلامي اعتنق الكثير من المسيحيين الإسلام، واكتسبت الثقافات سِمَاتٍ مشتركة، على حين ظلَّت تحتفظ بهوياتها المُتمايزة والمنفصلة، وكما كان الحال في شرق المتوسط، حيث بات من المتعذر

التمييز بين المسيحيين العرب والغالبية من السكَّان المسلمين، تلاشت أيضاً في الأندلس الفروق الظاهرية بين الجماعات، فغالباً ما اتخذ اليهود والمُستعربون اللغة العربية لساناً، على حين تخلَّى البربر عن اللهجات المحلية لصالح العربية (ومن الواضح مع هذا أنَّهم احتفظوا باللهجة البربرية)[٦]، لكن مع هذا بقيت الجماعات متمايزة، فقد حافظت على عاداتها، وكان هذا التوافق الفريد والمتناقض هو ما منحه المؤرخ الإسباني أمريكو كاسترو Americo Castro(١٨٨٥-١٩٧٢م) فيما بعد اسم (التعايش) Convivencia.

إنَّ كثيراً من أنماط العلاقات المُتبادلة المتنوعة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية التي تجلَّت في أماكن أخرى ظهرت في إسبانيا أولاً، ومع هذا فإنَّه بسبب عزلة شبه الجزيرة خلف جبال البرانس Pyrenees، فإنَّها لم تسترعِ الانتباه، وعلى أيَّةِ حال فإننا إذا قرأنا تجربة إسبانيا في ضوءِ تجربة البلقان Balkan Peninsula وشرق المتوسط، فسوف تظهر على السطح، العلاقات، والمشابهات، والمتوازيات[٧].

المبحث الثاني:
السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين (١٤٩٢-١٥٢٦م)

من المعروف أنَّ كلمة (موريسكيون) في اللغة الإسبانية تُشير إلى أنَّ مصدر الكلمة (موريسكي) هو كلمة «مورو»، التي اتصلت بكلمة Morescus باللاتينيَّة، وتعني سكَّان المغرب العربي، ثمَّ تحولت لفظة موريسكيين إلى معنى المسلمين الذين بقوا في إسبانيا تحت الحكم الإسباني عَقِب سقوط الممالك الإسلامية، وأُجبروا على اعتناق المسيحية[٨].

يُعتبر سقوط غرناطة حداً فاصلاً بين حضارتين في إسبانيا: حضارة عربية إسلامية ظلَّت تصارع من أجل البقاء لقرون[٩]، وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلاً وتقذف بهِ خارج شبه الجزيرة الأيبيرية، وسقوط غرناطة يحتل مكانةً خاصة لدى الأسبان والعرب على السواء، فالأسبان اعتبروه آخر حاجز في سبيل توطيد سلطتهم وتوحيد بلادهم، إذ مباشرةً بعد هذا السقوط سيقوم الملكان الكاثوليكيان فرديناند الخامس Ferdinand V (١٤٧٩-١٥١٦م) وزوجته إيزابيلا الأولى Isabella I (١٤٧٤-١٥٠٤م)[١٠]، بعدَّة إنجازاتٍ وحدوية، في حين اعتبره العرب مؤشراً واضحاً لأفول سلطتهم لا بالنسبة للأندلس فقط، ولكن حتَّى بالنسبة لمعاقلهم الأولى أيضاً، كما ظلَّت لغرناطة مكانةً خاصة في نفوس العرب، حتَّى أنَّ كلمة "غرناطي" كانت تعني في أحيانٍ كثيرة "أندلسي"، وهذا وضع لم تحتله أيَّة مدينة أندلسية أخرى.

ارتبطت المسألة الموريسكية بإسبانيا خلال عهد الملكين الكاثوليكيين، بمُعطياتٍ سياسية واقتصادية واجتماعية حددت مسار السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين بها، فإسبانيا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية، متخطيةً بذلك كلَّ الحواجز التي كانت تعوقها:

١. حواجز ديموغرافية Demography: بفعل العامل الجغرافي الذي تولَّد عنه انعزال العديد من المناطق التي تمسَّكت بشخصيتها المحلية واستقلالها إلى يومنا هذا (كاتالونيا Catalonia، إقليم الباسك The Basque Country، الأندلس).

٢. حواجز اقتصادية: التفاوت الطبقي بفعل وجود قوى الإقطاع التي تحظى بامتيازاتٍ كبيرة، تتعارض مع صلاحيات السلطة المركزية، إضافةً للكنيسة الكاثوليكية ورجال

الديـن الذيـن كان لهـم دورٌ بارز فـي حروب الاسترداد Reconquista[١١] ضدَّ المسلمين.

لكن العرش الإسـباني تمكَّن في النهاية من التغلـب علـى هـذهِ الصِّعاب؛ بفضل حماسـتهِ وطردهِ للعرب والاستيلاء على الأراضي التي كانـت بحوزتهـم، ما مكَّـن من توحيـد الجبهة الداخلية، ثمَّ التوجه نحو إتباع سياسـة خارجية فعَّالة[١٢].

يعتبـر غالبيـة المؤرخيـن بدايـة تاريـخ الموريسـكيين عنـد اكتمـال حركة الاسـترداد La Reconqutista عـام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، ونتيجةً لذلك دَرَس المتخصصون هذهِ الظاهرة من خـلال زوايا مختلفة، وفـي أماكن مختلفة، وذلـك بعد ذلك التاريـخ[١٣]، وفي إطار الزمان وقع تركيزهم بالدرجة الأولى على نهاية القرن الخامـس عشـر إلى النصف الأول من السـابع عشر، أمَّا جغرافياً فلم ينحصر الموريسكيون في الأندلس أو المناطق التي حكمها المسـلمون، إذ استقروا في أنحاءٍ مختلفة من إسبانيا والبرتغال والمغرب وتونس والجزائر وفرنسا، بل وصل بعضهم إلى القارة الأمريكية، لكن السؤال الذي يبقى أساسـياً هو هـل بدأت الظاهـرة قبل عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ؟ وبصفـةٍ أدق هل بدأت منذ سقوط طليطلة في ٢٥/ ٥/ ١٠٨٥م ؟ وإذا كانت كذلك كيف يمكن مقارنة هذهِ الظاهرة في نشأتها أو في مرحلتها الأولى مع تطورها في المراحل التي أعقبتها ؟ وما هي ملامحها الأولى ؟.

لـم تكن تسـمية الموريسـكيين موجودةً في القرن الخامس عشر، إلَّا أنَّ عدداً من المسلمين الأندلسـيين وقعوا تحت الاحتلال المسيحي في الأندلـس نفسـها منذ القرن الخامـس الهجري، وقـد أطلـق عليهـم المؤرخون المسـلمون لفظ «المدجنـون»، والمصدر مـن «دَجَن» ومعناه أقـام بالمـكان، إلَّا أنَّ هـذهِ العبـارة لا تعكـس الحقيقـة، كما أنَّها لا تُعبِّر عن جوانبها المختلفة والمعقَّـدة، ولا أبعادها المأسـاوية التي تتشـابه إلى حدٍّ كبير مع وضعية الموريسـكيين منذ عام ١٤٩٢م.

كما أنَّ التسـمية تنطوي على أحكامٍ مُسـبقة كونها مستخدمة من الأسبان لتعريف الأندلسيين المسلمين، الذين أُرغموا على اعتناق المسيحية كشرطٍ لبقائهم في بلادهم إسبانيا عَقِب احتلالها من قبل المسيحيين، وبعبارةٍ أخرى نظر الأسبان إلى الموريسـكيين نظرتهم إلـى «الآخر»، في حيـن أنَّهـم لـم يعتبروا أنفسـهم كذلـك، كما لم يُشـر إليهم أخوتهم في الدين عِبرَ المتوسط، في المغـرب العربي وفي أقطار العالم الإسـلامي بتلك التسـمية، لكن بالمُحصلـة أنَّها قد ظهرت في الأصل لتحديـد وتمييز أقلية في مجتمعٍ ذي أغلبيةٍ مسـيطرة مسيحية، ومع ذلك فإنَّ السؤال الـذي نريد طرحه هو هل وجد الموريسـكيون قبل وجود المصطلح نفسه ؟.

إنَّ وضعيـة المسـلمين الذين اسـتمروا في طليطلـة عَقِـب احتلالها، ووضعية المسـلمين الذين استمروا في بلنسية عَقِب احتلالها بتاريخ ١٢٣٨/١٠/٩م، تُشـيران إلى تقاربٍ شديد مع وضعية الموريسـكيين الذين بقوا بإسبانيا حيث فُرض عليهم التنصير بعد عام ١٤٩٢م[١٤].

دخل الأسبان غرناطة في ١٤٩٢/١/٢م[١٥]، وعلى الفور بدأت السلطات باستهداف اليهود في البداية، إذ أصدرت مرسوم في ١٤٩٢/٣/٣١م يُحدد طرد يهود إسـبانيا، وكان النذير المُسـبق بموقف الملكين متضمناً في وثيقة التسـليم التي وقَّعهـا المسـلمون بتأريـخ ١٤٩١/١١/٢٥م، حيـث تضمَّنت «نقل يهود غرناطة إلى شـمال أفريقيـا»؛ فصدر قراران في الوقت نفسـهِ في

قشتالة Castile وأراجون Aragon نصًّا على طرد اليهود بلا مواربة: "واليهود المذكورون... في مملكتينا عليهم أنْ يرحلوا ولا يعودوا أبداً إليهما... اليهود مهما كانت أعمارهم... ومعهم أولادهم وبناتهم، وخدمهم من الرجال وخادماتهم من النساء واليهود المألوفون، أولئك الذين من الكبار ومن هم أدنى، مهما كانت أعمارهم، عليهم ألَّا يتجاسروا على العودة إلى هذهِ الأماكن، ولا يُقيموا فيها... وإلَّا تعرضوا لعقوبة الموت ومصادرة كلِّ ممتلكاتهم"[١٦].

كذلك كانت كل التشريعات المُطبَّقة على المسلمين تنم عن روح الصراع بين الحضارتين، فقد كان من الواجب استدامة الانفصال لكي لا يزحف الخطأ إلى أساليب المُجتمع المسيحي، ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ قواعد عمل السلطات كانت تستند كذلك إلى اعتبارٍ آخر قوي: هو الأمل في تحويلهم عن دينهم، فانتصار المسيحية كان يقتضي ليس فقط إيصال رسالتها إلى المسلمين، بل كذلك إيجاد الظروف التي تساعد على تغيير الدين، فقد جرى تحريم اعتناق الإسلام وخلق الصعوبات في وجه هجرة المسلمين من الأوضاع المأساوية التي تُحيط بهم، إذ كان من المُعتقد أنَّ عزل المسلمين وشلِّ حركتهم في مُحيط سكَّانٍ مسيحيين ذوي عقيدةٍ قوية من شأنهِ أنْ يؤدي إلى سرعة اعتناقهم للمسيحية؛ نتيجةً للأعمال الطيبة التي تقوم بها الكنيسة، والمواعظ المناسبة التي تُقدمها لهم؛ ولكن هذهِ الخطَّة انكمشت فجأةً حين استُثيرت العواطف الدينيَّة[١٧].

لقد أصبح المسلم في أيِّ مكانٍ من إسبانيا يُعامل معاملةً سيئة، معاملة المهزوم، وبدأ يخسر حقوقه بشكلٍ تدريجي، كلَّما قويت شوكة المسيحيين، حيث لم يعترفوا بهم كمواطنين، على الرغم من التعايش السلمي الطويل، إذ انهار كلَّ ذلك مرةً واحدة، ولم يُسمح لهم بشغل مناصب الحكم والإدارة المحلية، كما تمَّ منعهم من شراء الأراضي بغية طردهم، كذلك فُرضت الضرائب الباهظة عليهم في عامي ١٤٩٥م و ١٤٩٩م، ما جعل إمكانيات الاستمرار مستحيلة، فاندلعت ثورة البيَّازين The Rebellion of the Alpujarras في ١٤٩٩/١٢/١٥م في غرناطة، لكن السلطات أخمدتها بمنتهى القسوة[١٨].

عَقِب إخماد الثورة أصدرت السلطات مرسوم في ١٥٠٢/٢/١٢م أمرت فيه المسلمين أنْ يختاروا ما بين التعميد أو النفي، قبل نهاية شهر نيسان ١٥٠٢م، لكن على من يرغبون بالهجرة أنْ يسلموا أبناءهم الذين تقل أعمارهم عن (١٤) عام وبناتهم اللاتي تقل أعمارهن عن (١٢) عام، في حين كان الأغنياء هم وحدهم الذين بإمكانهم الإفلات من هذا الشرط المُجحف، وحتَّى ولو كان بمقدورهم الحفاظ على أسرهم فلا بدَّ من أنَّ الحياة في المغرب العربي كانت قاسية، وهي مقصد معظم المهاجرين، فكانت النتيجة قبول معظمهم اعتناق المسيحية[١٩].

لم يكن دين الأندلسيين وحده هدف الاستئصال، وإنَّما ثقافتهم وتقاليدهم، التي كانت ترتبط في كثيرٍ من جوانبها بالإسلام، حيث أصدر حكَّام إسبانيا خلال المدَّة (٩١٧-٩٣٢هـ/١٥١١-١٥٢٦م)، سلسلةً من المراسيم الملكية والأوامر، قُصد بها استئصال ثقافة الأندلسيين بل ونمط حياتهم، التي رأوا أنَّها تُعيق تبنيهم للمسيحية، وكان اللباس الأندلسي، وبخاصة لباس المرأة، هدفاً لعدوانيةٍ خاصة من قبل المسؤولين والكنيسة تحت طائلة مطاردة محاكم التفتيش Inquisition[٢٠]، التي كانت في الأصل معنيةً بـ"الهرطقة" Heresy بين المسيحيين فقط[٢١].

المبحث الثالث:
الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط (الجزائر)

بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس، بل وقبلها، كانت الهجرة إلى بلدٍ إسلامي تُعد في كثيرٍ من الأحوال هي الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أنَّ الأمور في بلدهم تسير من سيءٍ إلى أسوأ، لذا بدأوا بالهجرة، وكانت لتلك الهجرة كغيرها من الحركات الكبرى في التاريخ نتائج ملموسة، سواءٌ على الذين هاجروا، أو على بعض البلاد التي هاجروا إليها، فرحل الأندلسيون إلى إسطنبول ومصر والمغرب العربي وأوربا، ليندمجوا ضمن المُجتمعات التي هاجروا إليها.

لكن الوضع في المغرب العربي كان مختلفاً، فقد أقام المهاجرون في قرىً ومدن خاصة، شيَّدوها على غِرار المدن التي جاؤوا منها، وظلُّوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم، ولم يندمجوا في المُجتمعات التي هاجروا إليها إلَّا بعد زمنٍ طويل؛ لذا كان لهجرة الأندلسيين نتائج ملموسة على المغرب العربي، إذ نقلوا نمط حياتهم وثقافتهم بكلِّ مميزاتها الحضارية[٢٢].

كان موقف الموريسكيين من الطرد «إيجابياً» بحسب ما يوردهُ المؤرخ ابن عبد الرفيع الأندلسي المتوفَّى في تونس عام ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م، إذ يذكر في كتابهِ «الأنوار النبوية في آباء خير البرية»، ما نصهُ: «... ولا يخفى أنَّ هذا أمرٌ عظيم ومحال عادة لِمَا كنا فيه من الشدَّةِ والضيق في الدين والنفس والمال، فسبحان ربِّ السموات وربِّ الأرض.. يا لها من أعجوبةٍ ما أعظمها ومن فضيلة...».

يتَّضح من خلال النص أنَّ الموريسكيين عقدوا آمالهم على إخوانهم المسلمين بالضفَّة الجنوبية للبحر المتوسط، فهل كان هؤلاء عند حُسن ظنِّهم ؟ أورد المؤرخ الجزائري شهاب الدين أبو العباس المقرّي (٩٨٦-١٠٤٠هـ/١٥٧٨-١٦٣١م) الذي عاصر عملية الطَّرد النهائي، وذلك في كتابهِ «نفح الطيب»، أنَّه بمجرد وصول الأندلسيين إلى الضفَّة الجنوبية تعرضوا للنهب والسرقة، يقول: «تسلَّط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهكذا كان ببلاد تملسان وفاس، ونجا القليل منهم من هذهِ المضرَّة».

ويُشير النص إلى نقطتين أساسيتين الأولى تمثَّلت في أنَّ الإساءة كانت من لدُن البدو أي الأعراب، الذين كانوا غير خاضعين للسلطة، خاصةً أنَّ المنطقة كانت تعيش اضطراباتٍ سياسية، ممَّا يدفعنا إلى طرح سؤالٍ عن موقف السلطة الرسمية من الهجرة الأندلسية ؟ والنقطة الثانية تمثَّلت في كون المناطق التي كانت بها الإساءة شَمِلت تلمسان وفاس فماذا عن مصر وتونس مثلاً ؟.

فيما يخص النقطة الأولى فالأحداث لا تترجم حقيقة الشعور العام تجاه الأندلسيين، فقد حاول مختلف الحكَّام المُعاصرين تقديم المساعدة والعون للمطرودين، أمَّا النقطة الثانية فإنَّ الذين توجهوا إلى تونس ومصر، لقوا استقبالاً وترحيباً من السلطات العثمانية فكان اندماجهم سهلاً، وذلك يعود إلى حالةِ الاستقرار السياسي في الولايتين[٢٣].

بين سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م وطرد آخر المنفيين الأندلسيين (١١٧) عام، قُدِّر عدد الأندلسيين الذين انتقلوا خلالها إلى الضفَّة الأخرى بحوالي ثلاثة ملايين شخص، ومن غادر انتقل ليُسهم في عمليةِ إعادة بناء مدن

المغـرب العربي وقُراها، إلى أنْ بدأت السـفن الإسـبانية تنقل مئات الآلاف منهـم اعتباراً من نهايـة عـام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، حيـث يذكر المقرّي: «ثمَّ بعد هذا كلّه كان من أظهر التنصُّر مـن المسـلمين يعبد الله خفيـةً ويُصلّي، فشـدد عليهم النصارى فـي البحث، حتَّى أنَّهم أحرقوا منهـم كثيراً بسـبب ذلـك، ومنعوهـم من حمل السـكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد، وقامـوا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يُقيِّض الله لهـم ناصراً، إلى أنْ كان إخراج النصـارى بهذا العصـر القريب أعوام سـبعة عشـر وألف، فخرجـت ألوف بفـاس، وألوف أخرى بتلمسـان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس»[٢٤].

وبصـورةٍ عامـة، فإنـه إذا كان العنصـر الأندلسـي لم يظهر فـي المقدمة على السـاحة في المغرب العربي حتَّى أواخر القرن التاسـع الهجري / الخامس عشـر الميلادي، فإنَّ سـبب ذلك لم يكن سوى المصير المنطقي لعمليةِ تطورٍ طويلـة؛ لأنَّ الهجرة إلى المغرب العربي كانت على مـدى تاريخ الأندلس مجـرد منفذ للهرب مـن الاضطرابـات الداخلية، وملجـأً للثوار أو ضحايا النكسـات السياسـية، فلجأ إليـه الفقهاء والعلماء لتلقِّي العِلم في القيروان أو تلمسـان أو فاس، كذلك كان للمصالح التجارية والسياسـية للأندلس ثقلٌ كبير أسهم في إقامة الأندلسيين في المغرب العربي، كما كان المكان الذي اسـتقبل المهاجريـن نتيجـة الحروب التـي اندلعت منذ القرن الثالث عشر[٢٥].

تُعـد علاقـة الجزائـر[٢٦] بالأندلـس علاقة قديمـة لها جذورهـا التاريخية التـي تعود لعهد المُرابطين (٤٥٧-٥٤١هـ/١٠٦٥-١١٤٧م)، الذيـن نجحوا بضـمِّ الأندلس، فـي حين مرَّت الهجرات بمرحلتين مميزتين:

المرحلة الأولى (من القرن الثامن الميلادي وحتَّى سـقوط غرناطة): تُقسـم إلى صفحتين؛ أولهمـا امتدت من القـرن الثامن إلـى الحادي عشـر، ارتبـط خلالهـا اسـتقرار العناصـر الأندلسـية بالنشـاط التجـاري خاصـةً، ولهذهِ الهجرات ميزاتٌ خاصة، لأنَّها هجرات لأُسـرٍ ثريـة وأعلام أندلسـية بـارزة، كان لهـا الأثر الكبيـر في جميع الميادين العلمية والاقتصادية، كما يعود سـبب الاستقرار للصلات الوثيقة بين الأندلس والمغرب الأوسـط، فساهم الأندلسيون في إنشاء وتجديد الموانئ الجزائرية.

وقد عرفت الجزائر إبَّان الصفحة الثانية من الهجرة الأندلسية المُمتدة (٦٠٨-٨٩٧هـ/١٢١٢-١٤٩٢م)، وصـول موجـات المهاجريـن مـع تلاحـق سـقوط الحواضـر الأندلسـية كقرطبة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، بلنسـية ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، أشـبيلية ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، لكن نصيـب مدينة الجزائر من هذهِ الهجـرة التي تكونت بمعظمها من رجال علمٍ وثقافة، كان ضعيفاً نسبياً بمقارنتها بالأعداد الهامة التي نزلت على (بجاية) الخاضعة لحكـم الحفصييـن (٦٣٤-٩٨١هـ/١٢٣٧-١٥٧٣م)، ثـمَّ تلمسـان حاضـرة الزيانييـن (٦٣٣-٩٦١هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م)؛ مـع توجـه الغالبيـة العظمـى مـن المهاجرين إلـى المدن السـاحلية، فكانـت محطَّـة اسـتقرارهم الأولى بجاية، ثـمَّ تحولوا إلى فحـص الجزائر بمنطقة تامنفوست (٢٤ كم شرق الجزائر).

ورافق ذلك قدوم جماعاتٍ كبيرة من اليهود الذين استقروا بالحواضر الكبرى في الجزائر، وأصبحـوا يشـكِّلون جماعاتٍ متميـزة تمارس التجـارة والمِهـن ذات الدخـل المرتفـع، حيث قُدِّر عددهم خلال القرن السـادس عشر للميلاد بـ(٨٠٠٠) نسـمة، اندمج معظمهم مع المُجتمع المحلِّي.

المرحلة الثانيــة (٨٩٧-١٠١٨هـ/١٤٩٢-١٦٠٩م): ازدادت حركــة الهجــرة، فانتهــج الأســبان سياســة نقــل المعركــة إلى ســواحل المغــرب العربــي، واحتلــوا عــدَّة موانــئ جزائرية خلال المــدَّة (٩١٠-٩١٦هـ/١٥٠٥-١٥١٠م)، ثمَّ دخــول العثمانيين لمدينة الجزائر عــام ٩٢٢هــ/١٥١٦م، وضمِّهــا لهــم عــام ٩٢٥هــ/١٥١٩م، مــا جعــل المدن الســاحلية تســتقبل أعداد كبيــرة من الأندلســيين، فتوالت الهجرات خلال القرنين الســادس عشر والسابع عشــر للميلاد، مع اســتقبال مدن الجزائر لهم، بالرغــم مــن بعــض الصعوبــات التــي كانت تعترضهــم، لكنهــم وجدوا مكان آمــن يلجؤون إليــه، فما أنْ حلَّ العام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، حتَّى أصبح عددهم في مدينــة الجزائر وحدها يُناهز (٢٥٠٠٠) نســمة، أمَّــا فيمــا يخــص الذين لم يتمكَّنوا من الوصول مباشرةً، فذهبوا إلى فرنسا حيث انتقلت غالبيتهم من مارسيليا Marseille إلى ليفورنو Livorno ومنها إلى الجزائر.

أدى قرار الطَّرد إلى هجرة (٢٨٠٠٠) من ميناء دانيــة، و (١٥٠٠٠) من ميناء بلنســية، بحيــث نُقــل الأولون علــى نفقــةِ الحكومة إلى وهــران، بينمــا أُرغم الآخرون على اســتئجار السفن التي نقلتهم، فتمَّ خلال ثلاث رحلات نقل (١١٦٠٢٢) مهاجر من أقاليم الأندلس الشرقية خــلال المــدَّة (تشــرين الأول - تشــرين الثاني ١٦٠٩م)، كان نصيب وهران (٢٢٠٠٠) نزلوا بها يــوم ١٦٠٩/١٠/١٧م، لكنَّهــا ضاقت بهم، فاتجه نحو (٥٠٠٠-٦٠٠٠) إلى تلمسان، ونحو (٤٠٠٠) إلى مستغانم، فنهبهم الأعراب[٢٧].

وأثار هذا الاعتداء استنكار العلماء وشيوخ القبائل الذين دعــوا إلى معاقبة المُعتدين، وكان فــي طليعتهــم الشــيخ مُحمَّــد أقــدار التوجيني (المتوفَّى عــام ١٠٦٦هــ/١٦٥٦م، والمدفون فــي متيجة قــرب مســتغانم)، الذي اســتنهض الشــيخ احميــدة العبــد شــيخ قبيلة ســويد على غــزو قبيلة هبرة لما اقترفته، وحســب ما ذكره المؤرخ الجزائــري مُحمَّد أبو رأس الأنصاري (١١٦٤-١٢٣٨هـ/١٧٥١-١٨٢٣م) في كتابهِ "عجائــب الأســفار ولطائــف الأخبــار"، فإنَّ "احميدة المذكور أتاه بجنودٍ عظيمة ووافق ذلك ختمه صحيح البخاري، ثمَّ ساروا ولقتهم جموع هبرة فانهزمت، وركبت ســويدا أكتافهم فقتلتهم كيف شاؤوا".

لكن الأمر لم يقتصر على الأعراب وحدهم بــل تعداهــم إلــى مناطق أخــرى، ففــي مدينة الجزائــر وعَقِــب وصول دفعة مــن المُهجَّرين الموريســكيين عام ٩١٨هــ/١٥١٢م، حلَّ بها جفاف خطير وحُمِّل الموريســكيون مســؤوليته من دون وجهِ حق، فصدر أمر من قائد الشرطة بطردهــم في ظــرفِ ثلاثة أيــام، وطُبِّق القرار بصرامــة، حتَّــى أنَّ المرضى والفقــراء الذين لم يســتطيعوا الخروج قُتلوا عنــوةً، كما حصل معهــم الأمــر ذاته فــي جنوب فرنســا إذ اعتبر ســكَّان مدينــة Narboone أنَّ الموريســكيين هــم الذيــن يتحملــون مســؤولية عــدم ســقوط المطــر بهذهِ المنطقة وطالبــوا بطردهم، وهكذا كمــا يقــول المــؤرخ الفرنســي المُعاصر لوي كارديــاك Louis Cardaillac فــإنَّ "مأســاة الموريسكيين أنَّهم كانوا يحملون ماضيهم معهم أينما حلُّوا وارتحلوا، فهم في إســبانيا وفرنســا مسلمون، وهم في شــمالي أفريقيا مسيحيون"، وأمــام هذهِ الوضعية حــاول العديد منهم العودة إلى إســبانيا، نذكر على الخصــوص المحاولة التي قاموا بها عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م بمُساعدة القبطان Garett، كذلك المحاولة التي قاموا بها في العام ذاتهِ بمساعدة القبطان Barret[٢٨].

يمكن القول إنَّ المُعاملة الســيئة التي تلقَّاها

بعض المهاجرين، لا تعدو كونها مجرد حوادث فرديــة، إذا ما أخذنا بالحُســبان المــدى الزمني الطويــل للهجــرات، كذلــك يعود ســببها لحالةِ الفوضى السياسية التي شَهِدتها الجزائر في تلك المرحلة التاريخيــة، وحتَّى تلك جوبهت بردود فعلٍ حازمة من قبل علماء الدين وشيوخ القبائل الذين حرصوا على مطاردة ومعاقبة المُعتدين.

كان لعلماء الدين الجزائريين موقفهم في هذا الســياق، إذ وردت ثلاثة فتــاوى، اثنتان لأحمد بن يحيى الونشريســي (٨٣٤-٩١٤هـ/١٤٣١-١٥٠٨م)، والأخيــرة لمُفتــي وهــران أحمد بن جمعــة المغراوي الوهرانــي، المتوفَّى بفاس ما بيــن (٩٢٠-٩٣٠هـــ/١٥١٤-١٥٢٤م)، وكلٌّ منهما له نظرته ورأيه الخاص بهِ:

فتــاوى الونشريســي: أصدر الشــيخ فتواه الأولــى للــردِّ على ســؤال بعــض المهاجرين الذين شــكوا إليه صعوبة أوضاعهم المعيشــيَّة فــي المغــرب العربــي، إذ حضَّهم علــى البقاء والصمــود حفاظــاً علــى عقيدتهــم، وممَّا جاء فيها: "بأنَّ الهجــرة من أرض الكفر إلى أرض الإســلام فريضــة إلى يوم القيامة... ولا يُســقط هذهِ الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين اســتولى الطاغية - لعنه الله - على معاقلهم وبلادهم..."؛ أمَّا الفتوى الثانية فأعلنها عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م، للردِّ على ســؤال أحد الموريســكيين حول طلبهِ البقــاء للدفــاع عن مصالــح أبناء عقيدتــهِ أمام الســلطات الإســبانية، فكان رده فــي هذا الأمر الرفض، لأنَّ مُساكنة الكفَّار من غير أهل الذمَّة والصغار لا تجوز ولا تُباح ساعة من نهار، لِمَا تنتجه من مفاسد دينيَّة ودنيوية.

فتــوى المغــراوي: أصدرهــا عــام ٩٠٩هـ/١٥٠٤م إلى مُسلمي غرناطة، أباح فيها للمسلمين البقاء شريطة أداء فرائض عقيدتهم مع التزام التقيَّة، فأجاز ممارســة عباداتهم بصورةٍ سرية؛ أي أنَّه اختلف مع صاحب الفتوى الأولى الذي شدَّد على وجوب الهجرة[٢٩].

كان الموريســكيون على العموم يســتعملون أقصر الطرق للوصول إلى بلادٍ إســلامية قريبة من ناحيتهم في إسبانيا[٣٠]، فمن كان يذهب للجزائر يتوجَّه إلى ميناء بلنسية، وينزل في ميناء المرسى الكبير القريب من وهران، كما كان أغلبهم يستأجر سفن تجارية، وهناك أفواج أخرى تهاجر على يدِ الســلطات على متن ســفنٍ حربية، فكانت تُلاقي مُعاملةً سيئة من قبل قباطنتها.

ولدى وصولهم لوهران الخاضعة للاحتلال الإســباني كان المهاجــرون يُلاقــون صعوباتٍ كبيرة، إذ تمَّ منعهم مــن دخول المدينة، فلجؤوا إلــى الريف المُجاور، حيث شــرعوا بالســكنى إلــى جانــب نُظرائهم الذين ســبقوهم منــذ مدَّةٍ طويلة، وقــد تركوا بصماتهــم المؤثرة في تلك الأرجاء[٣١].

اســتقر أغلب الموريســكيين في الحواضر الجزائريــة، أمَّا في البوادي فكان وجودهم غير مرغوبٍ فيه من قبل الســكَّان، بســبب المنافسة في ميدان الزراعة، إضافةً لتمتعها بالاســتقرار والأمــان، كونهــا مُحصَّنــة ومراقبــة مــن قبل الســلطة المركزية، بخلاف البوادي التي كانت شــبه منفصلــة لا تحظــى بالأمــن، وحتَّــى في الحواضــر كانت تحدث خلافات مع الســلطات العثمانية، لاســيَّما وأنَّ من بين الموريســكيين من ينتمــي للطبقة الارســتقراطية، ويرفضون السيطرة، ثمَّ هناك عامل اللغة والعادات الشيء الــذي أدى إلى حــدوث اصطدامــاتٍ متكررة، حتَّى أنَّ بعض الموريســكيين اضطروا للعودة إلى إسبانيا "متظاهرين بالولاء والتمسك بالدين المسيحي"[٣٢].

ولكـن الهجـرة والتهجيـر لـم يكـن نهاية الصلـة مـع الأندلـس الإسـبانية، إذ حاولـت بعـض الجماعات العودة سـراً فيما بعد، وربما نجح بعضهـم في الاختـلاط بالسـكَّان، وربما قُتـل البعـض وأُسـر البعض الآخر، وشـكَّلت مجموعاتٍ من المنفيين العارفين بأمور المِلاحة مجموعاتِ إغارة خاصة[٣٣].

المبحث الرابع:
تأثير الهجرات الأندلسية

أ. الجانب السياسي – العسكري:

كان الوضـع فـي المغرب العربـي مختلفاً عن المناطق الأخرى التي هاجر الموريسكيون إليها، حيث اندمجوا ضمن المُجتمعات المحلية، فـي حيـن أقـام المهاجرون فـي قـرىً ومدنٍ خاصة، شـيَّدوها على طراز المدن التي جاؤوا منها، وظلُّـوا يتحدثون الإسـبانية فيمـا بينهم، ولـم يندمجوا فـي المُجتمعـات المغربيـة التي هاجـروا إليها إلَّا بعد زمنٍ طويل، ثمَّ أنَّ لهجرة الموريسـكيين نتائج ملموسـة، فقد نقلوا ثقافتهم الخاصـة، بإيجابياتها وسـلبياتها، لكـن التأثير الأبرز أنَّهم نجحوا بإعادة هيكلة حركة الجهاد، بشقَّيها البري والبحري[٣٤].

إنَّ فتـح القسـطنطينيَّة Constantinople مـن قبل العثمانييـن في عـام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م والتهجيـر الأول للموريسـكيين عَقِـب سـقوط غرناطـة والحملـة الإسـبانية علـى الموانـئ الجزائريـة ووصـول الأخـوة بربروسـا Barbarossa[٣٥]، كان لـه تأثير مباشـر على الجزائـر، بخاصة في الجانب الاقتصادي، ذلك أنَّ التـوازن التجـاري القديم في غـرب البحر المتوسط قد تلاشى، إزاء التوسع المُستميت لكلٍّ من الأسـبان والعثمانيين وتعويض نظام القوى المحلية بنظام السلطة المركزية.

إنَّ النشـاط البحـري فـي موانـئ المغرب العربـي لم يكن فعَّـالاً في تلك المـدَّة بالمُقارنة مع نظرائهم الأوربيين، بسـبب قلَّة الإمكانيات والخبرات في ميدان المِلاحـة، كما أنَّ التجارة الأوربية كانت أكثر اتسـاعاً، كما حاول الحكَّام المحليـون الحفـاظ على العلاقـات الإقتصادية مع أوربـا، لكن مـع الحملات الإسـبانية على الموريسكيين والهجوم على سفن المسلمين أدى إلـى ردِّ فعـلٍ كان يقوى بالتدريـج، حتَّى بلغت بعض الموانئ درجةً مماثلة من الشـهرة، نذكر منهـا مينـاءَي عنَّابة (بونة) في شـمال شـرق الجزائر، وبجاية في شرقها.

إنَّ سـقوط غرناطـة قـد عجَّـل بانطـلاق الطاقـات الإسـبانية نحـو مغامرات مـا وراء البحار، بعد أنْ كانت حتَّى ذلك الوقت مشـلولةً بالمعركـة حول شـبه الجزيـرة، فكانت موانئ المغرب العربي الاختيـار الأمثل نتيجةً للعامل الجغرافي، كما أنَّ هجرة الموريسكيين قد سبَّبت التـأزم ما مهَّـد الطريق للتدخل الاسـباني؛ لذا اشـتدَّت المخاوف من هجوم المسلمين المُضاد عَقِب ثورة البشارات[٣٦].

أدى موقـع مدينة الجزائر حاضرة المغرب الأوسـط، وهـي مدينـة كانت غير بـارزة في السـابق، علـى طـرف البحـر المتوسـط إلى أنْ أضفـى عليهـا ميـزة الاختـلاط الحضاري التـي تتمتَّع بها معظـم الموانـئ البحرية، وقد جعل هذا الموقع السـاحلي سـكَّان الميناء على اتصـالٍ بالأحـداث التجارية والسياسـية، التي جذبت ملَّاحي البحر المتوسـط إلى امتداد الخط الساحلي وإلى خارجهِ صوب المُحيط الأطلسي، ولكـن على العكس من الموانئ الإسـبانية على الضفَّـةِ الأخرى بقيـت ثقافة الجزائـر البحرية تنتمي فـي أغلبها إلـى البحر المتوسـط، حتَّى أواخر القرن السادس عشر الميلادي، حين أدى

وصـول ملَّاحي الشـمال إلى إدخال الأسـاليب البحرية الأطلسية إليها، لقد كانت أساليب البحر المتوسط تسيطر بشكلٍ بارز على تركيب سكَّان المينـاء وعلى الحياة التجاريـة، وبوجهٍ خاص لغتهـا المشـتركة، أي لغة الحـدود التي تتكون مـن كلماتٍ ومصطلحـاتٍ تنتمي إلـى مختلف لغات البحر المتوسـط كان يجري التكلم بها في المدينة، ما يمكن اعتباره أنموذجاً للنمط السـائد في الموانئ الجزائرية[٣٧].

لقد انضم الموريسـكيون قبـل عملية الطرد النهائي وبعدها إلى صفوف البحَّارة المسـلمين، وقامـوا بعمليات إغارة دخلوا من خلالها شـبه الجزيرة لتخليص إخوتهم في العقيدة ونقلهم من هنـاك، ما أدى إلى تنشـيط العمليـات البحرية، وخاصـةً في بحـر البـوران The Alboran Sea (الجزء الأقصى من البحر المتوسـط، يقع بين إسبانيا شـمالاً، والمغرب والجزائر جنوباً) والسواحل الشرقية الإسـبانية، إذ كانوا عنصر فاعل لعدائهم الكبير للسـلطات الإسبانية نتيجة اقتلاعهم من ديارهم، ومعرفتهم بسـواحل شبه الجزيرة، وإلمامهم اللغوي، ثمَّ درايتهم بالتقاليد والعـادات المحليـة، مـا جعـل دخولهـم لجمع المعلومات تحظى بمردودٍ جيد[٣٨].

وخـلال القـرن السـادس عشـر الميلادي نشـطت الهجمات البحريـة المُنطلقة من موانئ المغـرب العربـي، باعتبارها جـزء من حربٍ غيـر نظامية، إذ كان بعـض القباطنة وكلاء أو نـواب للعثمانيين أو للحـكَّام المحليين، في حين كانـت الجزائـر هي الأبـرز في هذا السـياق، بحكم موقعها الجغرافي الإسـتراتيجي، ما جعل المصـادر الأوربيـة تصفها بصفـاتٍ مختلقة، منها: "الدولة المارقة" و "السوط المُسلَّط على العالـم النصرانـي"، وكان سـكَّانها "مجرمين وبرابـرة بـلا دينٍ أو قانـون"، لكـن العمليات البحريـة أدت إلـى ازدهارٍ تجـاري كبير، ففي عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م وصف السـفير الفرنسي في إسـطنبول نيقولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay (١٥١٧-١٥٨٣م) مدينـة مزدهـرة تضـم "الكثير مـن الحدائـق الجميلة والمُبهجة"، وفيها "يُمارس الأتراك والمغاربة واليهود تجارة البضائع المُربحة"[٣٩].

كانـت غـزوات البحَّـارة المسـلمين نـوع من أنـواع الجهـاد البحري، وباتحـاد القباطنة المحلييـن مـع الأسـطول العثمانـي أضحـت البحريـة العثمانيـة قوةً ضاربة لا يُسـتهان بها فـي البحر المتوسـط، ففي البدء وجَّـه القباطنة اهتمامهم بالدرجةِ الأولى لإنقاذ الموريسـكيين مـن ظلـم الأسـبان، والقضـاء علـى التجارة الإسبانية في البحر المتوسط، وضرب سواحلها وإلحاق الخسـائر بها، وبهـذهِ المهمة الجهادية لم يعد بإمكان أيِّ شـخص مقارنة نفسـهِ بواحدٍ مـن القباطنة الجزائريين؛ لأنَّهـم كلَّلوا أعمالهم بالنصـر والنجـاح، وأثبتـوا وجودهـم حتَّـى النهاية[٤٠].

جلب الموريسـكيون إلى المغرب الأوسـط تقاليدهم ومهاراتهم الحِرفية، فصنعوا الأسـلحة والبارود، لكن أبرز مـا ميَّزهم هو رغبتهم في اسـترجاع حقوقهم المسلوبة، لذا عندما توافرت لهم الإمكانيات جهَّزوا سـفن صغيرة بالسـلاح لمُهاجمة السفن والسواحل الإسبانية.

فبـدأت العمليات البحرية فـي تلك المرحلة التاريخيـة تحظى باهتمـامٍ كبيـر، ويعود ذلك إلـى دور الموريسـكيين في هذا المجـال، بعد أنْ كانـت في هـذا الجزء من البحر المتوسـط عبارةً عـن حكاياتٍ ونـوادر، ولـم تتطور إلَّا عندمـا تطورت بحيـث امتلكت المقـدرة على مهاجمة السفن والسواحل الأوربية، وبالأخص

الإسـبانية، وهذهِ الشـجاعة والاستبسـال يبيّن مدى رغبة الموريسكيين في استرجاع حقوقهم المسلوبة[٤١].

عُرفت هـذهِ العمليـات العسـكرية بالجهاد المقـدس، لكـن بالمقابـل وصفهـا المؤرخون الأسـبان بأسـوأ الصفـات، متغاضيـن عن ما قامت بهِ السـلطات الإسـبانية مـن فظائع تجاه الموريسـكيين علـى مدى عدَّة قـرون، كما أنَّ الحروب كانت حينها تتصف بالقسـوة والشدَّة، فالقباطنـة الجزائريـون كانـوا يأسـرون أو يدمرون سفن العدو، كما هاجموا ودمَّروا المدن السـاحلية وأسروا سكَّانها، على غِرار ما كانت تقوم بهِ الأساطيل الأوربية في سواحل المغرب العربي، لكنهم عاملوا النسـاء والأطفال معاملةً حسنة، ويذكر المؤرخ الإسباني دييغو دي هايدو Diego de Haëdo (١٥٢٧-١٦٠٨م) الـذي زار مدينـة الجزائـر في عـام ١٥٨٠م، بكتابهِ الصـادر عـام ١٦١٢م: "عندمـا كان الرياس يعودون من غزواتهم كانت المسرَّة والفرح تعم الجميع، فالتجار يشترون الأسرى والمجوهرات والتحف الثمينة التي أحضرها القراصنة معهم، والتجـار يبيعـون الألبسـة والأرزاق للقادمين الجُدد، فيكسـبون من جراء ذلك أرباحاً كبيرة، وكان كل شـخص من سـكَّان المدينة يتذوَّق لذَّة الفرح والسعادة، وهذا ما دفع الجميع إلى إظهار حبهـم وإخلاصهم للقراصنـة؛ لأنَّهم المدافعون عـن الدين وحماتهِ أيضاً، وكانت موائد البحارة المحبوبين تستقبل الجميع، كما كانت الفائدة تعم سكَّان الحي وخاصةً الفقراء منهم"[٤٢].

كان البحر المتوسط في القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد عبارةً عن حدٍّ فاصل بين الإسلام والمسـيحية، وكانت العمليات البحرية رائجـةً بين الطرفيـن، ومع انضمـام الجزائر للدولـة العثمانية ذات الإمكانيات الهائلة، أخذت تُسـاهم بشـكلٍ فعَّال في قضية الموريسـكيين، حتَّى أنَّ السلطان العثماني سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م) أرسل فرمان بتأريخ ١٥٧٠/٤/١٦م إلى بايلرباي الجزائر علج علي باشـا (١٥٦٨-١٥٧٧م) مرفق معه خطاب إلى الموريسـكيين بالجزائر يحثهم فيه على الجهاد، وممَّا جاء فيه: "بمشيئة الله شرعنا في إرسال قواتنا المنتصرة نحو شواطئكم، فإنَّ هذهِ القوات نراها ضرورية وهـي مـن الآن على أهبـة، وقد وجَّهنـا أيضاً أوامرنـا الأميرية صارمة إلى حاكمنا بالجزائر ليمدكم بـكلِّ ما تحتاجون إعانـةً؛ لأنَّكم برهنتم علـى إخلاصكم فـي الدفاع عن الإسـلام، ولم تتركوا دينكم رغم معارك الكفَّار التي واجهتكم، فـالله يعينكـم، وقـد برهنتـم بحضوركـم على شجاعتكم".

كان الموريسـكيون يُشكِّلون العمود الفقري للجيش الجزائري، كما كانوا خبراء في الشؤون الحربيـة، بخاصةٍ في ميدان الأسـلحة النارية، فبحسب المؤرخين الأسـبان كان للموريسكيين تأثير في أوسـاط الجيـش بالجزائـر، بل حتَّى خارجها، وكان ميناء شرشـال الـذي يقع على بعـد (٩٠) كم غـرب مدينة الجزائر مشـهور بصناعـة السـفن، لكن مـا يميزه كثـرة وجود الموريسكيين فيه، فغالبية السكَّان ينحدرون من غرناطـة وبلنسـية وأراغون، لـذا كان من أهم الموانـئ الجزائرية التي تنطلـق منها العمليات البحرية[٤٣].

ب. الجانب الاقتصادي – الاجتماعي:

انقسم الموريسكيون في الجزائر إلى فئتين:

١. التغريون Taragins: جاؤوا من مملكة أراغون في بلنسية وكتالونيا.

٢. المودجـار Mudejaros: وهم آخر من

وصلوا مـن غرناطة والأندلس، وحافظوا على لغتهم حيث يتكلَّمون الإسبانية فيما بينهم، وجلبوا معهم تقاليدهم الفنية والحِرفية، كما شَـهِد القرن الخامس عشر الميلادي وصول أعدادٍ كبيرة من اليهود الذين أُطلق عليهم اسم "كيبوزيين" نسبةً إلى القلنسـوة التي كانوا يرتدونهـا والمعروفة باسم "كابيوس"[٤٤].

من المُلاحظ أنَّ الموريسـكيين، سواءٌ كانوا مهاجريـن أو مطروديـن، احتفظـوا بخاصيـةٍ مميـزة لِمَا كانـوا عليه في شـبه الجزيرة على مدى قـرنٍ من الزمـان على الأقل: الاشـتغال بالزراعـة، والـري، والحِـرف الحضريـة، وبخاصـة الحِـرف المتعلِّقـة بفنـون المِعمار، وصناعة الحرير والمنسوجات، والتجارة، كما مارسوا الأنشطة التي كانت شائعة لدى تجمعات شـبه جزيرة أيبيريا ولـدى ورثتهم، فتفوقوا في تلك التجمعات الجديـدة أيضاً عِبرَ نقل التقنيات والمعارف المتقدمة في شبه الجزيرة، إذ ابتكروا تقنياتٍ جديدة في عالم البناء وفي العِمارة، حيث أضافـوا مخطَّطات عصر النهضـة، كذلك في هندسـة الري، بل حتَّى في المنتجات الزراعية الجديدة، التي سبق أنْ عرفتها شبه الجزيرة من أمريكا، منها على سـبيل المثـال نبات الصبَّار الهندي Tamarind، الـذي تتميز بهِ البيئة في المغرب العربي[٤٥]، لذا يمكن الجزم أنَّه بالرغم من الظروف الصعبة التي واجهتهم في انتقالهم واستقرارهم، هجرتهم عامة، والجزائر خاصة، إلَّا أنَّـه كانـت لهـم تأثيراتٍ كبيـرة على أغلب الميادين في الجزائر، إذ كانـوا يمثلون مجتمع حي ونشيط وفاعل إنْ صحَّ التعبير، فتمكَّنوا من مواصلة الحياة بكلِّ متاعبها وبالفعل نجحوا في ذلك، فبعد هجراتهم إلى الجزائر واسـتقرارهم بها، كانت هناك انعكاسـاتٍ إيجابية على الحياة الإقتصادية والاجتماعية والثقافية، إذ اشـتهروا ببراعتهـم فـي الزراعة، والصناعـة والتجارة بكلِّ أنواعها مع باقي الحِرف، ذلك ما مكَّنهم من تكوين مجتمعهم المتحضـر، تاركين بصماتهم في كلِّ الأماكـن التي تواجدوا فيها، فقد تميَّزت الجالية الموريسـكية بالجزائر بكونها أصبحت تُشـكِّل عنصراً بشـرياً له تأثيراتـه في مختلف جوانب الحياة[٤٦].

أتقن الموريسـكيون عدَّة حِرف، فكان منهم صانع الأسـلحة والبارود، والعـارف بالحِدادة والنجـارة والبناء وصناعـة الأحذية، إلى غير ذلـك، وكذلك بعض المهـارات الفنية كصناعة الحريـر وفـن الخياطـة والتطريـز، وأخـذوا يندمجـون تدريجيـاً فـي المجتمـع الجزائري متَّبعيـن عاداتـه وتقاليـده، وفـي هذا السـياق يذكر المُستشـرق الفرنسـي سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy (١٧٥٨-١٨٣٨م): "إنَّ أغلب الأندلسيين استقروا بالمدن حيث اكتسبوا عقـاراً وأمـلاكاً، وصـار المرء لا يـرى إلى سـحنات أهل الأندلس على الوجـوه، وقد كوَّن هؤلاء الأندلسـيون مجتمعاً وطبقة أرستقراطية إلـى جانـب الطبقـة التركيـة الحاكمـة، وكان نشـاطهم يتجلَّى أكثر في الجزائر العاصمة...، وقد تدفَّقت الخيرات على الجزائر في هذهِ الفترة بفضل نشـاط أهل الأندلس، إضافةً إلى درايتهم بالقرصنة في البحر في هذا الوقت".

وقد أدى هذا النشـاط إلى إحياءِ مدن متعددة بعد أنْ كانت في طور الاندثار مثل (شرشـال)، و (البليدة) (٣٦ كم شمال العاصمة)، كما أدخلوا زراعـة بعـض المحاصيـل الجديـدة، كالقطن بمينـاء مسـتغانم (٢٧٣ كـم شـمال العاصمة) والكروم بعنَّابة.

وفي مجال الهندسـة المائيـة عملوا بإتقان، وأوصلوا مياه الشـرب لمدينة الجزائر بواسطة

قنـواتٍ خاصـة بقيت من عهد الرومان، تشـبه القناطر في هندستها، فاستخدموها بحِرفيةٍ لنقل مياه الشرب للعاصمة، وقد نُسب المشروع إلى مهنـدسٍ كان يُدعى (موسـى) ومشـروعه هذا خرج إلى حيّز الوجود عام (١٦١٠-١٦١١م)، وبقيـت طريقة نقـل المياه هذهِ قائمـةً إلى بداية القرن الثامن عشر الميلادي[٤٧].

استفادت الجزائر من استقرار الموريسكيين علـى أراضيهـا، إذ تمكَّنـوا مـن اسـتصلاح مساحاتٍ واسعة من الأراضي بنواحي (متيجة) ومرتفعات السـاحل القريبة مـن مدينة الجزائر بفضل براعة ومهارة فلَّاحي بلنسية والأراغون ذوي التقاليـد العريقة في ممارسـة الفِلاحة؛ لذا نجد الجزائر من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلـى جنوبها تزخر بمنتوجاتٍ زراعية متنوعة، كأشجار الفاكهة (التفاح، الكروم، الحمضيات)، بالإضافـة إلى العديـد من أنـواع الزهور التي كانت تُزرع بغرض تقطيرها.

كذلك تمكَّنوا من إدخال العديد من الوسـائل المتطـورة لتحديـث الزراعـة للحصـول على منتـوجٍ وافـر، عكس ما كانت عليـه الحال من قبل؛ لذا اشتهرت كل منطقة من مناطق الجزائر بمنتـجٍ خـاص بهـا، كمـا قـام الموريسـكيون المسـتقرون في مدينة الجزائر والبليدة، القليعة والمدية بإدخـال التقنيات الزراعيـة المتطورة إلـى هذهِ المدن، ممَّا أدى إلى تطويرها، وزيادة منتوجاتها وتحسـين نوعيتهـا، ومنها البرتقال، الرمَّان، الأجاص، الكـرز واللوز وغيرها من أنواع الفواكه.

هذا ويعود الفضل إليهـم في إدخال زراعة شـجرة التوت الأبيض والأسود بنواحي القليعة وشرشـال، والأرز والقطن بكلٍّ من مسـتغانم، مليانة، والعنَّاب بإقليم عنَّابة؛ وممَّا سـاعد على ذلك هـو حُسـن التنظيم والتسـيير، فقـد قاموا بتنظيمٍ مُحكم ودقيق للمصادر المائية المتوفِّرة، إذ أقاموا الأحـواض والصهاريج لخزن المياه، وشقوا السـواقي والقنوات الكبيرة، لاستخدامها في ريّ البساتين[٤٨].

كانت مدينة الجزائر تتحكم في إنتاج بعض المـواد المصنوعة في المغرب العربي، إحداها هي "الشاشـية"، وهـي لباس منسـوج دائري حـول الرأس، شـاع ارتداؤه بين السـكَّان، كما أنَّ السراويل والبرانيس المصنوعة من الحرير والصـوف كانت تجد السـوق الرائجة لنوعيتها الجيـدة، كما أنَّ اللباس الجزائـري كان يتحمل الصباغـة بشـكلٍ جيـد، كمـا كان مـاء الورد المُسـتقطر مـن مـزارع الزهـور الجزائرية، وأفضل نوعية منه "النساري"، الذي يُستخرج من زهور البليدة البيضاء[٤٩].

وأنتـج الموريسـكيون أنـواع متعـددة من المنسـوجات الحريريـة والصوفيـة والكتَّانيـة والقطنية، وذلـك يعود لبراعتهم في تربية دودة القـز The silkworm التـي جلبوهـا معهم، فاشـتهرت بجايـة بإنتـاج أنـواعٍ مختلفـة من الصناعات النسـيجية كصناعة الألبسة والعمائم والشواشي، كما اشتهرت تلمسان أيضاً بصناعة النسـيج والملابس الصوفية وأقمشة من حرير، وأيضاً صناعة الزرابي (السِـجَّاد) ذات الطابع الأندلسي.

فـكان لقـدوم الموريسـكيين إلـى الجزائر أثرٌ فـي الارتقاء بصناعة النسـيج التي حظيت باهتمامٍ واسـع مـن مختلف شـرائح المُجتمع، وحتَّى النسـاء كانت لهنَّ مساهماتٍ في صناعة النسـيج، وخاصةً الزرابي التي كانت تتم داخل البيوت.

ومـن الصناعـات التـي مسَّـها التأثيـر الموريسـكي الصناعة الخزفيـة، حيث تصاعد الاهتمـام بهـا باعتبارها من متطلَّبـات الحركة العِمرانية التي شَـهِدتها البلاد، المتمثلة في بناء المسـاجد والقصـور والبيوت، وقد اشـتهرت بجاية بجودة وتنوع منتجاتها الخزفية.

كما انتعشت الصناعات الجلدية، وتصدرت بجايـة التي برع سـكَّانها في صناعـة الأحذية متعددة الأنواع، كما اسـتقر بعضهم في تلمسان وبرعوا في صناعة الأحذية والسروج والطبول والدفوف[٥٠].

وأسـهم الموريسـكيون في ازدهـار الفنون العِمرانيـة[٥١]، وأدخلـوا علـى الجزائـر نوعاً من الحياة الحضرية المُترفة والشـغف بالفنون الجميلـة، وما كاد ينتهي حكـم البايلرباي، حتَّى أصبحـت مدينـة الجزائـر باعتـراف المؤرخ هايـدو، تضم عشـرة آلاف بسـتان اشـتهرت بالخِصب والجمال، كانت سـهول المتيجة مليئةً بالمـزارع التـي كان يعمـل فيها نحو خمسـة وعشرين ألف شخص.

يُجمع المؤرخون علـى أنَّ الرخاء كان يعم مدينـة الجزائر، فقـد كان الصيد البحري وحده كافياً لتزويد السـكَّان بمـا يحتاجون إليه، فكيف إذا أُضيف إلى ذلك التجارة الخارجية التي كانت بيد الموريسـكيين، يُضاف إلى ذلك أنَّ ازدهار الصناعـات اليدوية الدقيقة من قبلهم، جلبت إلى مدينـة الجزائر القوافل من الداخـل التي كانت تأتي لتتزود من هذهِ المصنوعات الجديدة.

أمَّا التجارة، فيكفـي أنْ نُلاحظ أمرين لنُبيِّن درجـة ازدهارها في تلك المرحلـة التاريخية، وهما:

١. المغانـم التـي كان يكسـبها القباطنة في غزواتهـم، والتي تُعتبر هي المحرك الأساسـي للسـوق بما تحمله من كنوزٍ ثمينة تأخذ طريقها إلى داخل البلاد أو إلى أوربا.

٢. بـروز الأهميـة التي أصبحت تكتسـبها الجزائر ممَّا دفع الـدول الأوربية إلى المُتاجرةِ عِبرها، لذا ساد الرخاء والازدهار[٥٢].

ساهم الموريسـكيون بشكلٍ كبير في تنشيط التجـارة، وتولِّي قطَّاع الخدمات والإدارة، فمنذ أنْ وطـأوا الجزائـر أولـوا اهتمامـاً لتحصيل الضرائـب، وجمـع مـوارد الخزينـة، وتقديم الخدمات الضرورية للإدارة العثمانية، وتسهيل تعاملها مع السكَّان.

لقد قدَّم وجودهم مسـاعدةً كبيرة على تنظيم الحكومـة، فأسـهموا بتأسـيس ثلاث سـلطات إحداهـا مدنيـة، والثانية قضائيـة، والثالثة هي السـلطة التنفيذية، كما ساعد تكاتفهم ومهاراتهم الإداريـة ومعرفتهـم بالمُعامـلات فـي أغلـب الميادين، وامتلاكهم رؤوس الأموال التي نقلوها معهم وعَمِلـوا على نموِّها، أنْ أصبحوا يمثلون الطبقة الغنية بالجزائر، خاصةً بعد تعاونهم مع السلطات العثمانية.

وممَّـا يُلاحظ أيضاً ضمن هذا السـياق أنَّهم أسـهموا في شيوع النقود الإسبانية بين السكَّان، وجعلها العُملة المطلوبة في التعامل ما بين حكَّام الجزائر وباقي الـدول الأوربية أثناء معاملات التجارة[٥٣].

كان الموريسـكيون في الجزائر يشـعرون بوجود خصائص حضارية واجتماعية تميزهم عن سواهم من سكَّان المناطق التي استقروا بها، ممَّا حال دون انصهارهـم في المُجتمع الجديد، ومن بين تلك الخصوصيات الإجتماعية اهتمامهم الكبير بمظهرهم الخارجي، حتَّى قال فيهم لسان الديـن ابن الخطيـب (٧١٣-٧٧٥هـ/١٣١٣-١٣٧٤م): "كأنَّهم الأزهار المتفتحة في البطاح

الكريمة تحت الأهوية المُعتدلة"، كما اشتهروا بألبسةٍ معيَّنة، من بينها: (الملف) وهو قطعة من القماش تُلف حول نصف الجسد الأعلى ويُطرح طرف منها على الكتف، وهي ملوَّنة وتختلف ألوانها بحسب الثروة والمكانة، كما كانوا يلبسون اللباس المغربي والمعروف اليوم بـ"الجلاية".

أمَّا النساء فكُنَّ يُبالغن في التفنُّنِ بزينتهنَّ، ويتنافسن في اقتناء الحُلي والمجوهرات، كما اشتهروا بالعناية بنظافتهم الشخصية وثيابهم، وبالاحتياط وحُسن التدبير في المعاش، وحفظ ما بأيديهم مخافة ذلِّ السؤال.

ومع هجرتهم بقوا محافظين على نمطِ حياتهم ومعيشتهم، فقد كانوا يشعرون بأنَّهم في مكانٍ انتقلوا إليه اضطراراً لا اختياراً، وأنَّهم في مجتمع أقل منهم تحضراً، ليستمر الاحتفاظ بالذات وبتلك السِمات والخصائص الإجتماعية، حتَّى في أسمائهم الأندلسية بعد عشرات السنين من هجرتهم بل عدَّة قرون(٥٤).

أثَّر الموريسكيون بشكلٍ مباشر على الحياة الثقافية، كغيرها من المجالات الأخرى، فكان النشاط الثقافي والإشعاع الفكري في الحواضر كبجاية، تلمسان، مدينة الجزائر، استمراراً للإسهام الفكري والإنتاج العلمي الأندلسي، وتأتي بجاية في المقدمة، إذ أصبحت محطَّ الموريسكيين الذين أصبحوا يُشكِّلون غالبية سكَّانها، ما أدى لتوافد عددٍ كبير من العلماء عليها، فكانت بيوتهم أماكن لتجمع طلبة العِلم للمُذاكرة والمناقشة والنظر في المسائل العلمية، والأدبية واللغوية.

اختار عدد من الموريسكيين مِهنة التعليم، وجعلوها مصدر رزقهم، ومارسوا التعليم في الكتاتيب، فقدموا دروس لمختلف العلوم إلى جانب تحفيظهم القرآن الكريم، والحديث، كما قاموا بنشر خطِّهم، حتَّى صارت خطوط سكَّان المغرب العربي كلُّها على الرسم الأندلسي، أمَّا التعليم العالي فقد كان يتم في المساجد والزوايا ودور العلماء ومجالس المُناظرة، وكان يقوم بهِ كبار العلماء.

لم يقتصر التأثير على الميدان الأدبي فقط بل تعدَّاه إلى الميدان العلمي، فقد استفادت الجزائر من الأطباء الذين استقروا فيها، بخاصةٍ في بجاية، كما استقبلت تلمسان عدد من العلماء الموريسكيين فشَهِدت من جراء ذلك نهضةً حضارية كبرى، أدت إلى تطورٍ كبير في مختلف نواحي الحياة العلمية والثقافية(٥٥).

الخاتمة:

نجح المسلمون في فتح الأندلس وإقامة دولة فيها خلال المدَّة (٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م)، حيث كانت سواحل المغرب العربي نقطة انطلاقهم نحوها بحكم الموقع الجغرافي، وخلال هذهِ المدَّة لم تنقطع الصلات الوثيقة المختلفة بين ضفَّتي البحر المتوسط على مختلف الصُعد، العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، رافق كلَّ ذلك نجاحهم في إرساء دعائم حضارةٍ مدنيةٍ مزدهرة امتدَّ نطاق إشعاعها ليشمل كافَّة أنحاء أوربا، وما زالت معالمها الحضارية، وبالأخص العِمرانية، راسخةً في المناطق التي خضعت للحكم العربي الإسلامي، إلى الوقت الحاضر.

كان المغربان الأقصى والأوسط هما الأكثر تأثيراً وتأثراً بما يحدث في الأندلس، لذا فمع تراجع المسلمين أمام هجمات الحكَّام الأسبان بدايةً من القرن الثالث عشر الميلادي، ومع توالي سقوط الحواضر الأندلسية، أخذت جموع المهاجرين الموريسكيين تتدفَّق على الضفَّة

الأخـرى بحثـاً عن الأمـان، ولمقاومـةِ جهود السلطات والكنيسة الكاثوليكية لتغيير عقيدتهم، والقضـاء علـى كلِّ مـا يمـت لهـا بالصلة من عاداتٍ وتقاليد.

حمـل المهاجرون معهم إلـى المناطق التي استقروا بها نمط حياتهم، وبالأخص في الموانئ التي كانت مقصدهم الرئيسـي، مع جميع تقاليده ومميزاته فانشؤوا أحياءً، بل ومدن خاصة بهم، وفـي أحيانٍ أخرى أعادوا إحياء مدن مهجورة، أو بنـاء أخـرى جديـدة، مـع التنويـه أنَّ هـذهِ الهجـرات كانت من السِّـعة العددية والتاريخية بمـكان، بحيـث أنَّهم شـكَّلوا مجتمـع متميز له خصائصه المتفـردة ضمن المدن التي هاجروا إليها.

شَـهِدت العلاقة بين ضفَّتي البحر المتوسط تطوراتٍ كبيرة اسـتُهلَّت بسـقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، ووصلت ذروتها مع قرار السـلطات الإسـبانية طرد الموريسـكيين عـام ١٦٠٩م، وما بين هذين التاريخين، عانى الموريسـكيون اضطهـاد شـرس ومُمنهـج من قبل السـلطات لتغييـر عقيدتهم وتقاليدهـم، ودمجهم بالمُجتمع الإسباني، لذا كان قرار الطَّرد النهائي اعتراف رسمي بالإخفاق من لدنها.

خـلال ذلـك عانـت المنطقـة من صـراعٍ عسـكري مريـر، زاد منه وصـول العثمانيين إلـى المغرب العربي في أوائل القرن السـادس عشر الميلادي، ثمَّ انضم الموريسكيون بحماس إلـى حركـة الجهـاد البحـري، مسـتفيدين من خبراتهم المُكتسـبة، فكانوا عِمـاد هذهِ الحرب، نتيجةً لِمَا عانوه مـن ظلمٍ واضطهاد ومُصادرة للحريـات والثـروات على مدى قـرونٍ طويلة وبأسـاليب غيـر إنسـانية، حتَّـى بمعايير تلك المرحلة التاريخية، كما سـعوا بما حملوه معهم من مهاراتٍ وخبراتٍ في الجانب الاقتصادي - الاجتماعي، بل فـي مختلف الميادين الأخرى، كاللغـات والآداب والفنون، إلـى إضفاء صبغةٍ حضاريـة جديـدة على المـدن والمواقـع التي قطنوهـا، والتي يمكن تتبع سِـمَاتها الرائعة في الكثيـر من المـدن الجزائريـة، وبالأخص في بعـض مُفـردات اللغة وفـن العِمـارة والأزياء وغيرها.

الهوامش:

(١) للتفاصيـل عن مكونات المُجتمع الأندلسـي، يُنظر: مرثيديـس غارثيـا أرينال، **شـتات أهـل الأندلس (المهاجرون الأندلسـيون)**، ترجمة: محمود فكري وجمال عبـد الرحمن، (القاهرة، المشـروع القومي للترجمـة، ٢٠٠٦م)، ع١٠٨٥، ص ص٣٣-١١٤؛ مـولاي أحمـد الكامـون وهاشـم السـقلي، **التأثير الموريسـكي في المغرب**، (جدَّة، مركز الدراسـات والبحوث الإنسـانية والاجتماعيـة، ٢٠١٠م)، ص ص٢٨-٣٣.

(٢) رضـا هادي عباس، **اللقاء الحضاري في الأندلس.. صـور مـن التسـامح الدينـي بين المسـلمين والمسـيحيين في الأندلس**، (بغـداد، دار الحوراء، ٢٠٠٩م)، ص١٩. للتفاصيل عن التاريخ السياسـي والاجتماعـي الأندلسـي (٧١١-١٤٩٢م)، يُنظـر: علـي الجـارم بك، **العـرب في أسـبانيا**، (ترجمة لكتـاب Stanley Lane Poole)، (القاهـرة، دار المعـارف، ١٩٤٤م)، ص ص٢١٣-٢١٤؛ ليفـي بروفنسـال، **الحضارة العربية في أسبانيا**، ترجمة: الطاهر احمـد مكي، ط٣، (مصـر، دار المعارف، ١٩٩٤م)، ص ص١٧٧-٢٠٥.

(٣) (مجموعـة باحثين)، **الحضارة العربية الإسـلامية في الأندلس**، تحرير: سـلمى الخضراء الجيوسـي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م)، ج١، ص٥٥. للتفاصيل عن أحداث المرحلة الأخيرة من الوجود العربي الإسـلامي فـي مملكة غرناطة، يُنظـر: مؤلِّف مجهول، **أخبـار العصر في انقضاء دولة بني نصر**، تحقيق: حسـين مؤنـس، (القاهرة، الزهـراء للإعـلام العربـي، ١٩٩١م)، ص ص٩-

١١٩؛ عباس جبير طعمة التميمي، **نُظُم الحكم والإدارة في الأندلس.. عصر بني الأحمر (٦٣٥-٨٩٧هـ)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٤م.

(٤) للتفاصيل، يُنظر: ليفي بروفنسال، مرجع سابق، ص ص٩٧-١٤٧.

(٥) صلاح جرار، **زمان الوصل.. دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس**، (بيروت، المؤسَّسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م)، ص ص٥-٨. للتفاصيل عن وجهة النظر الإسبانية، يُنظر: رضا هادي عباس (دراسة وترجمة)، **الحضارة الإسلامية بأقلام إسبانية.. جهود حركة الاستعراب - الاستشراق الإسباني في نشر التراث الأندلسي**، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠١٦م)، ٢ج.

(٦) كان لهذا الأمر تأثيره الإيجابي على ميدان اللغة والآداب والترجمة، التي شَهِدت ازدهار غير مسبوق بخاصة إبَّان مراحل الاستقرار السياسي. للتفاصيل، يُنظر: شاكر مصطفى، **الأندلس في التاريخ**، (دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م)، ص ص١٥٩-١٦٧؛ **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، مرجع سابق، ص ص٤٦١-٧٩١.

(٧) اندرو هويتكروفت، **الكفَّار.. تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، (مصر، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣م)، ع٢٠٧٢، ص ص١٤٥-١٤٦. للتفاصيل عن التأثير الحضاري العربي الإسلامي على أوربا، يُنظر: علي حسني الخربوطلي، **الإسلام في حوض البحر المتوسط**، (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠م)، ص ص١٢١-١٦٦؛ صلاح جرار، مرجع سابق، ص ص١٩-٨٣.

(٨) مولاي أحمد الكامون، مرجع سابق، ص١٠. للتفاصيل، يُنظر: ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، **الموريسكيون في الفكر التاريخي**، ترجمة: وسام محمد جزر وجمال عبد الرحمن، (مصر، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٥م)، ع٩٥٩، ص ص٧-٢١١.

(٩) للتفاصيل عن الصراع المرير وأهم ملامح السياسة الإسبانية تجاه الأندلسيين قبل سقوط غرناطة، يُنظر: الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا (بلنسية ١٩٠١م)، **الموريسكيون الأسبان ووقائع طردهم**، ترجمة: كنزة الغالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٢م)، الكتاب الأول من الجزء الأول، ص ص٤٥-١٠٤؛ مارمول كارباخال، **وقائع ثورة الموريسكيين**، ترجمة: وسام محمد جزر، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢م)، ع١٩٩٤، ج١، ص ص٨٣-١١٧.

(١٠) تولَّى فرديناند الخامس Ferdinand II (١٤٥٢/٣/١٠-١٥١٦/١/٢٣م) عرش أراغون عام ١٤٧٩م، وكان قبلها قد تزوج من ابنةِ عمهِ إيزابيلا Isabella I (١٤٥١/٤/٢٢-١٥٠٤/١١/٢٦م)، وريثة عرش قشتالة، بتاريخ ١٤٦٩/١٠/١٩م، ما مهَّد لتوحيد إسبانيا عقب تولِّيه الحكم. للتفاصيل، يُنظر: الأسقف دون باسكوال، مرجع سابق، ص ص١٠٧-١٢٢؛ زينب عصمت راشد، **تاريخ أوروبا الحديث.. من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن الثامن عشر**، (القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.)، ج١، ص ص١٩-٢١.

(١١) للتفاصيل، يُنظر: إيف برولي، **تاريخ الكثلكة**، ترجمة: جورج زيناتي، (بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٨م)، ص ص٥-١٤٣.

(١٢) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧**، ط٢، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠١٤م)، ص ص٦١-٦٣.

(١٣) للتفاصيل، يُنظر: فرانثيسكو ماركيث بيانوينا، **القضية الموريسكية من وجهة نظرٍ أخرى**، ترجمة: عائشة محمود سويلم، (مصر، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٥م)، ع٨٥٦.

(١٤) مولاي أحمد الكامون، مرجع سابق، ص ص٣٤-٣٦.

(١٥) للتفاصيل عن مفاوضات وشروط التسليم، يُنظر: عادل سعيد بشتاوي، **الأمة الأندلسية الشهيدة.. تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة**، ٢٠٠٠م، ص ص١١٩-١٢١؛ مارمول كارباخال، مرجع سابق، ص ص١١٩-١٤٠.

(١٦) اندرو هويتكروفت، مرجع سابق، ص٢٢٦.

(١٧) أندرو هيس، **افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس**، ترجمة: أحمد عبد الرحيم

مصطفى، (الكويت، منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٦م)، ص٢٠٣. للتفاصيل، يُنظر: مارمول كارباخال، مرجع سابق، ص ص١٤١-١٥٢.

(١٨) جمال عبد الكريم، **الموريسكيون.. تاريخهم وأدبهم**، (القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٧م)، ص ص٩-١٠. أمام محاولة الإدماج القسري قام المسلمون بثلاثة ثوراتٍ رئيسية، هي: ثورة البيازين ١٤٩٩م، ثورة البشارات (١٥٠٠-١٥٠١م)، الثورة الكبرى (١٥٦٨-١٥٧٠م). للتفاصيل، يُنظر: مارمول كارباخال، مرجع سابق، ص ص١٥٣-١٦٣؛ ماثيو كار، **الدم والدين.. إبادة شعب الأندلس**، ترجمة: مصطفى محمد عبد الله قاسم، (أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)، ٢٠١٣م)، ص ص٣٠٥-٣٢٤.

(١٩) أندرو هيس، مرجع سابق، ص ص٢٠٩-٢١٠.

(٢٠) تأسَّست محاكم التفتيش The Inquisition في قشتالة عام ١٢٣٥م، ثمَّ تمَّ إعادة تأسيسها من قبل الملكين الكاثوليكيين، في ١٤٧٨/١١/١م بمباركة البابا سيكتوس الرابع Sixtus IV (١٤٧١/٨/١٨-١٤٨٤/٨/١٢م)، واستمرت بممارسة نشاطاتها حتَّى إلغائها في ١٨٣٤/٦/١٥م. للتفاصيل، يُنظر: بشرى محمود الزوبعي، **محاكم التفتيش الإسبانية (١٤٨٠-١٥١٦م)**، (عمَّان، دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م)؛ علي مظهر، **محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال**، (القاهرة، المكتبة العلمية، ١٩٤٧م).

(٢١) ماثيو كار، مرجع سابق، ص ص١٦-١٧. للتفاصيل، يُنظر: محمد رزوق، مرجع سابق، ص ص٥٢-٨٨؛ مارمول كارباخال، مرجع سابق، ص ص١٦٧-١٧٥.

(٢٢) فتحي زغروت، **العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس (١٤٩٢-١٦٠٩م)**، (القاهرة، دار التوزيع والنشر، ٢٠١١م)، ص٢٦٧.

(٢٣) مولاي أحمد الكامون، مرجع سابق، ص ص١٠٢-١٠٣. للتفاصيل، يُنظر: أنطونيو دومينغيث أورنيث وبيرنارد فانسون، **تاريخ الموريسكيين.. حياة ومأساة أقلية**، ترجمة: محمد بنيايه، (أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، (مشروع كلمة)، ٢٠١٣م)، ص ص٣٨٥-٤٢٣؛ مرثيديس غارثيا أرينال، مرجع سابق، ص ص١٥٧-١٨٣.

(٢٤) عادل سعيد بشتاوي، **الأندلسيون الموراكة**، (القاهرة، ١٩٨٣م)، ص ص١٩٠-١٩١.

(٢٥) مرثيديس غارثيا أرينال، مرجع سابق، ص١٥٠.

(٢٦) ضمَّت الجزائر عدد من أهم موانئ المغرب العربي، منها الجزائر العاصمة، ووهران وبجاية وعنَّابة، في حين خضعت مدينة الجزائر للحكم العثماني عام ١٥١٩م، كما نجح العثمانيون في ضمِّ ولاية الجزائر خلال المدَّة (١٥١٩-١٨٣٠م)، حيث أحكموا سيطرتهم عليها بشكلٍ تدريجي، مع التنويه أنَّ إسبانيا بقيت مؤثرةً في الشأن الجزائري خلال المدَّة (١٥٠٥-١٧٩١م)، باحتلالها لعدَّة موانئ جزائرية، كان أهمها ميناء وهران الإستراتيجي، الذي أُرغمت على الانسحاب منه في عام ١٧٩١م، في حين انقسمت مرحلة الحكم العثماني إلى عدَّة عهود منها عهد البايلربايات (١٥١٩-١٥٨٧م) أي عهد «أمير الأمراء»، أعقبه عهد الباشوات (١٥٨٧-١٦٥٩م). للتفاصيل، يُنظر: محمود إحسان الهندي، **الحوليات الجزائرية.. تاريخ المؤسَّسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال**، (دمشق، مطابع الجمعية التعاونية للطباعة، ١٩٧٧م)، ص ص٣٥-٤١؛ مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، (الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٤م)، ج٣، ص ص٤١-١٥٢.

(٢٧) فتحية لعرجوم ونعيمة حليمي، **الدولة العثمانية ومُسلمي الأندلس خلال القرنين (١٠-١١هـ/١٦-١٧م)**، مذكِّرة مقدمة للحصول على شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، المدية، جامعة الدكتور يحي فارس، كلِّية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، ٢٠١٤-٢٠١٥م، ص ص٦٦-٧٢.

(٢٨) محمد رزوق، مرجع سابق، ص ص١٣٢-١٣٣.

(٢٩) فتحية لعرجوم، مرجع سابق، ص ص٧٥-٧٨.

(٣٠) استخدم الموريسكيون موانئ أخرى مختلفة للهجرة إلى المغرب وتونس. للتفاصيل، يُنظر: مرثيديس غارثيا أرينال، مرجع سابق، ص ص١٥٧-١٨٣.

(٣١) محمد قشتيليو، **حياة الموريسكيون الأخيرة في إسبانيا ودورهم خارجها**، (تطوان، مطابع الشويخ، ٢٠٠١م)، ص ص٢٥-٢٦. للتفاصيل، يُنظر: عمار

بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية ولغاية ١٩٦٢م**، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م)، ص ص٥١-٥٥.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٤٨. للتفاصيل، يُنظر: أنطونيو دومينغيث أورنيث، مرجع سابق، ص ص٤٠٨-٤١٣.

(٣٣) عادل سعيد بشتاوي، مرجع سابق، ص١٩١.

(٣٤) فتحي زغروت، مرجع سابق، ص ص٢٦٧-٢٦٨.

(٣٥) للتفاصيل، يُنظر: **مذكَّرات خير الدين بربروس**، ترجمة: محمد دراج، (الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م)؛ عزيز سامح التر, **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**, ترجمة: محمود علي عامر, (بيروت, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, ١٩٨٩م)، ص ص٢٧-١٢٣.

(٣٦) وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتعليق: عبد القادر زبادية، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م)، ص ص٢٥-٢٧. للتفاصيل عن مدينتي عنابة وبجاية، يُنظر: الحسن بن محمد الوزان، **وصف أفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م)، ٢ج.

(٣٧) أندرو هيس، مرجع سابق، ص ص٢٤٨-٢٤٩.

(٣٨) مرثيديس غارثيا أرينال، مرجع سابق، ص ص١٥٠-١٥١.

(٣٩) ماثيو كار، مرجع سابق، ص ص٢٥٥-٢٥٧. للتفاصيل، يُنظر: شارل أندري جوليان، **تاريخ أفريقيا الشمالية**، ترجمة: محمد مزالي والبشير بو سلامة، ط٣، (تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣م)، ج٢، ص ص٣٣٢-٣٣٨.

(٤٠) عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص ص١٤٨-١٤٩.

(٤١) كورين شوفالييه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠-١٥٤١م)**، ترجمة: جمال حمادنة، (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧م)، ص ص١٦-١٧.

(٤٢) عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص١٥٠.

للتفاصيل، يُنظر: مرثيديس غارثيا أرينال، مرجع سابق، ص ص١٦٨-١٧٤.

(٤٣) محمد قشتيليو، مرجع سابق، ص ص٥١-٥٢. للتفاصيل، يُنظر: الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا، مرجع سابق، ص ص١٤٩-١٥٥.

(٤٤) كورين شوفالييه، مرجع سابق، ص ص١٦-١٧. للتفاصيل، يُنظر: أندرو هيس، مرجع سابق، ص ص٢٤٩-٢٦١.

(٤٥) مرثيديس غارثيا أرينال، مرجع سابق، ص ص١٨١-١٨٢.

(٤٦) فتحية لعرجوم، مرجع سابق، ص ص٧٨-٧٩.

(٤٧) محمد قشتيليو، مرجع سابق، ص ص٤٩-٥١.

(٤٨) فتحية لعرجوم، مرجع سابق، ص ص٧٩-٨٠.

(٤٩) وليم سبنسر، مرجع سابق، ص ص١٢١-١٢٢.

(٥٠) مريم بو عامر، **الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأدنى ودورها في الازدهار الحضاري ما بين القرنين (٧-٩هـ/١٣-١٥م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، ١٤٣٠-١٤٣١هـ/٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص ص١٢٤-١٢٥.

(٥١) للتفاصيل، يُنظر: ج. س. كولان، **الأندلس**، ترجمة: لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، كتب دائرة المعارف الإسلامية (٢)، (بيروت، دار الكتاب اللبناني / القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٨٠م)، ص ص١٥٣-١٨٣.

(٥٢) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ص١٢٢-١٢٣.

(٥٣) فتحية لعرجوم، مرجع سابق، ص ص٨٢-٨٣.

(٥٤) مريم بو عامر، مرجع سابق، ص ص١٣١-١٣٢.

(٥٥) فتحية لعرجوم، مرجع سابق، ص ص٨٥-٨٦. للتفاصيل، يُنظر: جمال عبد الكريم، مرجع سابق، ص ص٣٩-٧٧.

The Influence of the Andalusian Migrations of the Middle Maghreb (Algeria)
(1492-1609)

Assis. Prof. Dr. Samir Abdul Rasoul Al-Obeidi

Abstract:

The location of the city of Algiers, the capital of central Morocco, in the heart of the Maghreb, has brought the Mediterranean to the advantage of the cultural mix of most sea ports. This coastal site has made the inhabitants aware of the commercial and political events that have attracted Mediterranean navigators Extension of the coastline and beyond to the Atlantic Ocean.

This strategic location was of great importance, and communication between Algeria and the Andalusian cities continued unabated, leaving its direct effects on various aspects of political, economic and social life. However, with the escalation of recovery operations and the decline of the continuous Arab-Islamic presence, which ended with the fall of Granada 1492, the flow of Mauritanian migrations increased as a result of the systematic persecution of the Spanish authorities in order to eliminate all aspects of the Arab-Islamic presence that lasted for the period (1492-1609).

The new immigrants, directly involved in the Jihad movement, contributed their expertise, a strong desire to retaliate against what had happened to them, forced them to leave their homes and properties, and acquired distinctive skills in various fields of agricultural, commercial and industrial activity, Or the establishment of new communities and cities, helped by the welcome they received from the population and local authorities.